قراءة في ومضة "عطش" لوردة بليغ

بسّام جميدة، سوريا

عطش

ضنّ عليها بالسقيا ..أوشكت على الجفاف ..أمطرتها سحابة عابرة.

يفتح نص الكاتبة اليمنية وردة بليغ (عطش) الأبواب مشرعة لتداول الكثير من الصور حول هذا العطش وإسقاطها عليه حسب الحالة والزمن والواقع الذي تمر به الشخصية، وهو عطش يحتمل الكثير من التفسيرات التي قد توقع اللوم على الشخصية التي بدت غامضة نوعا ما في النص (زوجة ، عشيقة، ابنة، تلميذة..وهكذا) لو افترضنا أن (السقيا) بالمعنى المجازي هو العطف أو الحنان أو الاهتمام أو الحاجات الزوجية إن كانت زوجة مثلاً..

الصياغة هنا في البداية والنهاية قد تبرر للشخصية فعل ما تريد، (وكونها مكتوبة بما يوحي أن الشخصية أنثى) وهنا يتبادر إلى الذهن فعل الخيانة والإهمال الذي يعاني منه الشخص الآخر. وكون الراوي لم يتداخل مع الحدث بل نقل لنا الصورة كما هي، لم يتم الإشارة إلى نكران الفعل الذي قامت به الشخصية، وهي مهارة تحسب للكاتبة، حيث تركت النتيجة للقارئ

للبحث عنها وشجبها والتعليق عليها بما يريد ويختار، فالنص بات في متناول القارئ والناقد ولم يعد ملكا للكاتب كي يوضح ما يريد.

ابتدأت الومضة بالفعل (ضن) الذي يدل على شدة البخل وعدم إعطاء المرأة حقها من واجبات قد تبدو ملحة، وهو فعل ماض مما يعني أن موضوع البخل والتقتير مستفحل وليس فعل حاضر أو جديد، مما أضاع عليها أمولا وحقوقا كثيرة. وعندما تضييع الحقوق قد يحس من ضاع حقه بالظلم الشديد وقد يؤدي ذلك إلى تصرفه تصرفات غير سوية. فالمرأة قد تكون ليست منحرفة هنا، ومن الواضح أنها صبرت لوقت طويل، ولم تفكر في الارتواء إلا عندما هجم عليها الجفاف ليجتث حياتها. الومضة إدانة لمجتمع الذكور الذي يدفع المرأة للانحراف مثلا بتمسكه الزائد عن الحد بحقوقه دون التفكير في حقوق الآخرين، بالبخل الشديد وحرمان شريكة حياته من أبسط حقوقها، وهي حقوق غريزية كما يتضح من الومضة، والغريزة لا تعرف العقل ولا المنطق أحيانا.

في المجمل تبقى مشكلة الإهمال والانصراف إلى متاعب الحياة اليومية هي من أعقد المشاكل التي تنتجها حياتنا الاستهلاكية السريعة حيث اللهاث وراء لقمة العيش أو العمل والوظيفة وربما الملذات والشهرة وغيرها مما قد يشغل الزوج عن زوجته ورب الأسرة عن أسرته، وعاشق عن عشيقته، حيث يشير النص الى ذلك صراحة، والمطلوب أن يتم توزيع الاهتمام بالقدر

الكافي خوفا من أي تصدع قد يطرأ على الحياة الأسرية وعلى جدران العلاقة المبنية بين طرفين.

وبغياب الفاعل والمفعول به هنا تنصب كل الاحتمالات حول الخيانة ربما وهي أقرب للظن، وكما أسلفت النص فتح المجال للتصور ومن الممكن أن يكون قد ضن على شجرة بيته مثلا وهذا وارد أيضاً .. وكلمة (أوشكت) فتحت الباب أكثر للتأويل ومزيد من القراءة، أي قبل أن تجف، حيث لم يصبها الجفاف بعد، ومن الممكن أن تكون (كادت) أن تجف، أي قبل الجفاف بقليل وكون النص يشير إلى حالة أنثى رضيت بما أمطرته عليها سحابة عابرة، نتساءل هل يمكن لكل من يضن عليها زوجها أن تتقبل أي قطرة عابرة..أم تموت من الجفاف؟ سؤال يبدو ملحا كثيرا في ظل ظروف الحياة الانسانية المتشعبة التي قد تفرز لنا الكثير.

ومن أمطرها السقيا وساهم بسد الاحتياجات بطريقة بالتأكيد تبدو بطريقة غير شرعية، يشارك في الجرم وشارك به قاصدا ذلك وتغيب عنه أخلاقيات الحياة وهذا يبدو من سياق النص..

وهل يجوز هذا لباقي الأشخاص المفترضين الذين ذكرتهم في السياق أن يستبيحوا سقيا عابرة؟ وحدها النباتات والحيوانات هي من تفعل ذلك من أجل الحياة ويمكن أن تسقيها سحابة عابرة.. في هذه الومضة تغيب الثقافة

والتربية والأخلاق والرادع عن الشخوص حيث يستلزم حضورها في أوقات مهمة من أجل حالة الصمود في أقسى حالات القطيعة أو الإهمال...وربما غيابها عن الومضة يبعدها عن ماهية الوعظ والإرشاد.

مع ذلك فالومضة حالة تستوجب الرصد التقطتها الكاتبة ببراعة وهي تمسك بمهارة بأدواتها الكتابية... النص بجماليته مقسم على ثلاث مراحل وحالات، يغوص في سلوك النفس البشرية سواء كان عفويا أم مقصوداً، ويشير بقسمه الأول "ضن عليها بالسقيا" إلى موضوع البخل الذي يؤدي إلى عواقب وخيمة قد لايشعر بها البخيل ذاته ولا حتى يدرك مخاطرها، وهي عادة مقيتة في المجتمع وفي الأسرة. كما تشير الومضة في شقها الثاني إلى موضوع الصبر والتحمل من خلال جملة "أوشكت على الجفاف" وهذه أيضا لا تأتي إلا عبر حالة عالية في النفس ربما تصل إلى الصوفية وأكثر، ويتطلب وجودها التربية والإيمان والردع والخشية من الكلام، والأهم هو البحث عن منفذ للخلاص بطريقة صحيحة لا تكون عواقبها بحجم عاقبة البخل. فيما يأتي القسم الثالث من الومضة "أمطرتها سحابة عابرة" لتبدو استجابة عفوية لقلة السقيا وفعل الجفاف الذي يكون مقدمة طبيعية للموت، فالأرض العطشى تعشق الماء وهي نتيجة تبدو طبيعية في الطبيعة، ولكن لايجوز تعميمها على البشر من أجل إباحة المحظورات. وفعل المطر في الطبيعة لا يكون بفعل فاعل بل ضمن مواقيت معلومة، والتشبيه هنا بـ

أمطرتها أي سقتها والفعل هنا جاء عن فعل فاعل وتصميم وإرادة موجودة حتى لو كانت من سحابة عابرة، واستخدام كلمة عابرة قد يكون للتخفيف من الفعل الذي تم الإقدام عليه، أي ليس هناك مواظبة عليه.